جولة مع ابن حزم

للأستاذ محمد رشاد غانم

ابن حزم الأندلس من أينع الثمرات التى أنشق عنها فردوسنا المفقود «الأندلس» فهو من أعلام الدين والشعر والأدب والسياسة والتاريخ والفلسفة : عرفه أنصار السنة كما عرفوا شيخ الإسلام إبن تيمية وتلميذه إبن القيم اللذان ذهبا إلى ربهما ولم ينصفهما التاريخ، كانوا من أعلام الأسلام وقادته الأحرار وقفوا أنفسهم لتطهير شريعة الله وتنقيتها من الأضاليل والأباطيل التى دسها أعداء الإسلام فاناروا الطريق وحرروا العقول والأفكار من أسر التقليد وتركوا لنا ثروة علمية هائلة وأسسوا لنا مدرسة حرة لا تخضع إلا لله ، تستمد ثقافتها من مشكاة النبوة من قرآن وحديث: غذاء العقل الناضج والفكر الحر والقلب النقى الذى لا يحيا إلا بهما حارب إبن حزم التقليد فزلزل قواعده وصدع بنيانه، يحمل بيده مصباح الكتاب الكريم وتظله راية السنة المطهرة . وذلك فى منتصف القرن الخامس .

وحطم شيخ الإسلام إبن تيمية فى القرن السابع السلاسل والأغلال التى كبلت العقول وشلت الأفكار بضوء الكتاب ونور السنة حتى صعدت روحه إلى ربها شهيدة الحق والواجب بين جدران السجون تشكو ظلم الأنسان لأخيه الانسان بعد أن ضرب المثل الأعلى للرجل المثالى الذي باع نفسه لله ، مات ضحية الظلم والجهل والهوى حتى ذهبت روحه إلى بارئها راضية مرضية ...

ثم قام من بعده تلميذه ووارث علمه الإمام ابن القيم حاملا لواء الجهاد بعد شيخه وله فيه المثل الأعلى فى نصرة دين الله فقام بالنضال العلمى العنيف والحملات القوية الشديدة التى صبها على أهل النقص والضعف والفتور والتقليد والركود والرجوع والجمود حتى خر صريعا فى ساحة الجهاد ومات شهيد الواجب والحق والنبل ولحق بشيخه الإمام بالرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء فجزاهم الله عما أدوه من جهاد أحسن الجزاء .

وهاهو الوعى الفكرى والنضوج العقلى تبزغ شمسه ويحدثنا استاذ فاضل من أساتذة الجامعة على منبر الإذاعة حديثا شيقا ممتعا عن ابن القيم الفقية الحر فكان حديثه بردا وسلاما على قلوب المؤمنين وإننا لنرجو الأستاذ الفاضل حفظه الله أن يزودنا من هذه الأحديث الممتعة ويكشف الغطاء عن هؤلاء العباقرة الذين ظلمهم التاريخ ، ويشنف أذاننا بسيرة هؤلاء الأفذاذ جهابذة الإسلام وأعلامه.

عرف أنصار السنة هؤلاء القادة أساطين الفقة وجهابذة الأصول ومن بينهم صاحب جولتنا ابن حزم الذى نريد أن نقضى معه على صفحات الهدى الغراء بعض الوقت ، .عرفوه إماما حرا جريئا لا يخاف فى قالة الحق لا ئمة لائم

فصحبوه وأحبوه ونالوا فى سبيل محبته أذى كثيرا كما استفادوا من صحبته علما غزيرا ، فأضاءوا للناس الطريق ، وأناروا السبيل ، فكم من ضال تائه حيران قد هدوه ، فما أجل آثارهم فى الناس ، وأقبح أثر الناس فيهم وعليهم ، هزنى الشوق ، وجذبنى الحنين وأنا أحد أفراد أسرة أنصار السنة أن أرافق شيخ السنة ابن حزم الإمام فى جولة بين رياض بحوثه الممتعة التى أملاها قلبه وعقله فى فلسفة الأخلاق وأقتطف من كل فصل زهرة ، عله يكون عظة وعبرة لكل دعى جهول

متطفل على مائدة الإمام ، فيجنى عليه ويسىء إليه من حيث يريد أن يحسن صنعا . الزهرة الأولى نقتطفها من باب الراحة . قال الإمام ابن حزم « باب عظيم من أبواب الراحة ، وهو طرح المبالاة بكلام الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل ، بل هو العقل كله والراحة كلها ، من قدر أن يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون .

من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمها فى أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه ، لأن مدحهم إياه إن كان بحق وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب فأفسد بذلك فضائله . وإن كان بباطل فبلغه فسر فقد صار مسرورا بالكذب . وهذا نقص شديد .

وأما ذم الناس إياه فإن كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا ناقص ، وإن كان بباطل فصبر اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر وكان مع ذلك غانما لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل فيحظى بها فى دار الجزاء أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها . ولا تكلفها وهذا حظ رفيع لا يزهد فيه إلا مجنون » .

ثم ننتقل إلى فصل العلم نقتطف منه الزهرة الثانية . قال رحمه الله « لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويحبونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه فكيف بسائر فضائله فى الدنيا والآخرة ؟ ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط نظراؤه من الجهال

لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار منه فكيف بسائر رذائله فى الدنيا والآخرة ؟ » .

إلى أن قال « من شغل نفسه بأدنى العلوم ، وترك أعلاها ، وهو قادر عليه كان كزارع الذرة فى الأرض التى يجود فيها البر ، ونشر العلم عند من ليس من أهله مفسد له كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى ، وكتشميمك المسك من به صداع . أجل العلوم ماقربك من خالقك تعالى ، وما أعانك على الوصول إلى رضاه . انظر فى المال والصحة إلى من دونك ، وانظر فى الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك . العلوم الغامضة كالدواء القوى يصلح الأجسام القوية ويهلك الأجسام الضعيفة . لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون و يظنون أنهم يعلمون ، و يفسدون و يظنون أنهم يصلحون »

ننتقل إلى فصل آخر نقتطف منه زهرة ـ قال « من امتحن بالعجب فليفكر فى عيوبه فإن أعجب فليفتش مافيه من أخلاق دنيئة فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أن مصيبته إلى الأبد وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً وأضعفهم تمييزاً وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل ، ولا عيب أشد من هذين لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى فى قمعها ، والأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته لأنه يقرر أن عيوبه خصال وهذا أشد عيوب الأرض . واعلم يقيناً أنه لا يسلم إنسى من نقص حاشا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط وصار من الضعف والرذالة والخسة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الأراذل و بحيث ليس تحته منزلة من الدناءة

فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الاعجاب بها وعن عيوب غيره التى لا تضره فى الدنيا ولا فى الآخرة » .

إلى أن قال « لكن مثل بين نفسك و بين من هو أفضل منك فحينئذ يتلف عجبك وتفيق من هذا الداء القبيح الذى يولد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلا شك من هو خير منك استخفيت بهم بغير حق استخفوا بك بحق لأن الله تعالى يقول (وجزاء سيئة سيئة مثلها) » .

ننتقل إلى فضل حضور مجالس العلم نقتطف منه الزهرة الأخيرة قال « إذا حضرت مجلس العلم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علماً وأجراً لا حضور مستغن بما عندك طالباً عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها . فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون فى العلم أبداً فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيراً على كل حال ، وإن لم تحضر على هذه النية فجلوسك فى منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك ، فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهى إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية فى المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس فإن لم تفعل ذلك فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع محاسن وعلى خامسة وهى استزادة العلم .

وصفة سؤال المتعلم أن تسأل عما لا تدرى فإن السؤال عما تدرى قلة عقل وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى إلى اكتساب العداوات، وهو بعد عين الفضول ، و إياك من أن تراجع مراجعة العالم وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بيناً فان لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك إلا تكرار قولك أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة فأمسك فإنك

لا تحصل تكرار على أجر زائد ولا على تعليم ولا تعلم بل على الغيظ لك وخصمك والعداوة التى ربما أدت إلى المضرات وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

إلى هنا نفارق شيخ السنة وإلى اللقاء فى جولة أخرى نرفه فيها النفس بين زهور بساتينه .

وبعد : فهذه باقة من الزهور اقتطفتها فى رحلتى مع ابن حزم الإمام ، فهى روح وريحان لنفوس المؤمنين ودواء ناجع شافى إن شاء الله لكل قلب مريض ونفس عليلة عالج فيها الفقيه الفيلسوف مشكلة القلب والنفس ، أسال الله أن ينفع بها مرضى القلوب والنفوس ، وأختم للقول بهذه الحكمة الرائعة « رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه » .